الشرفاء يرثون الأرض

رواية "أن تقتل طائرا بريئا " قد أعجبتنى كثيرا هذه الرواية ووجدت فيها الكثير من المبادئ والقيم التي يمكن للإنسان أن يتعلمها مهما كانت ديانته ومهما كانت عقيدته السياسية، وقد تحيرت كثيرا فى اختياري للجانب الذي يستحق أن أكتب فيه مقالي، فهناك العديد من الجوانب في هذه الرواية وكلها تستحق أن أكتب فيها مقالي، سواء من الناحية الاجتماعية أو الأدبية والفنية أو الاقتصادية أو السياسية، فمن كل جانب من هذه الجوانب يمكنني أن أكتب كتابا وليس مقالاً، فمن الناحية الاجتماعية نجد كثيرا من المبادئ التي تمكننا من التعامل مع الآخرين ، ومن الناحية التربوية يمكننا أن نكتب الكثير عن المبادئ التي أثرتنا بها الرواية ككيفية التعامل مع الأطفال، ومن الناحية الاقتصادية يمكننا أن نتكلم عن مدى تأثير الطبقية على أفراد المجتمع وعلى تصرفاتهم وميولهم وكيفية تفكيرهم، ومن الناحية السياسية نجد نفس الأمر، أما من الناحية الأدبية، فهناك الكثير الكثير مما يمكن التكلم عنه من فن الكتابة والاستعارات والتشبيهات والتصوير الفني لواقع الرواية من بداية العنوان حتى نهاية الرواية، وبالطبع يرجع الفضل في استمتاعنا بكل هذه الجوانب لمترجمة هذه الرواية ومن شاركها هذا المجهود، حيث استطاعت مضاهاة الترجمة على الأصل واستطاعت أن تقربنا من واقع الأحداث في هذه الرواية وجعلتنا نتفاعل معها في كل أحداثها، وبمناسبة حديثي عن الجانب الأدبى للرواية أحب أن أشيد بمقدمة المترجمة لأنها أفادتني بشكل كبير في الدخول لوقائع هذه الرواية، هذا بالطبع مع احترامي لرأي مؤلفة الرواية (هاربر لي) وبما أن الرواية مليئة بالجوانب التي تصلح لأن تكون موضوع لمقالي إلا أنني عزمت أمري على أن أكتب مقالي في الجوانب والمعاني السياسية التي تزخر بها الرواية، حيث

إن هذا الجانب هو مجال تخصصي، وقد ارتأى لي أن أفضل طريقة لذلك هي إجراء مقارنة بـــين واقعنـــا الحـــالي وأشخاصه وبين وقائع الرواية وأشخاصها. وقد جعلت مقالي عنوانه "الشرفاء يرثون الأرض" وقد يعتبر البعض هذا العنوان إنما هو رجاء وسيعتقد البعض أنه سراب، ولكنني أعتقد أنه يقين.

❖ **تعقيدات مجتمع مايكوم والمجتمع العالمي واحدة:** لقد وجدت تشابه كبير بين مجتمع مدينة مايكوم وما يعيشه من تعقيدات بسبب تعدد واختلاف التيارات الاجتماعية والثقافية والدينية التي تعيش قي هذه المدينة وبين مجتمعاتنا الحالية سواء قصدت بذلك المجتمع الأمريكي خاصة أو المجتع الدولي عامة، **فمن ناحية العرق** نجد الأفارقة الســـود يعيشون مع البيض، كما نجد تعدد الطوائف الدينية حيث يوجد الميثوديين بجانبهم المينونايت وبجانبهم أيضا أتباع الكنيسة البروتستانتية المعمدانية (غاسلو الأقدام) بجانبهم المعمدانيين المعتدلين، كما نجد المـــثقفين المتحـــررين وإلى جانبهم المثقفين المحافظين كما نجد الفلاحين العاديين، **وإذا قارنا ذلك بواقعنا اليوم** فسنجد نفس الأمر فى أمريكا خاصة والمجتمع العالمي عامة، فنجد المسيحيين الأرثوذكس والإنجيليين والكاثوليك وشهود يهوه وكل ملة من هذه الملل تنقسم إلى طوائف مختلفة، ونجد اليهود منهم الربانيون والقرائيون وكل ملة تنقسم أيضا إلى طوائـــف ونجـــد المسلمون منهم السنة ومنهم الشيعة وهكذا، هذا فقط بالنسبة للأديان السماوية أما بالنسبة للأديان غير الســـماوية فيعدون بالمئات، أما بالنسبة للعقائد السياسية، فهناك الليبراليون والاشتراكيون والقوميون الخ . كما نجـــد تعـــدد الأعراق بشكل كبير، وإن كانت كلها تعود إلى سام وحام ويافث أبناء سيدنا نوح عليه السلام وبدون أن أطيـــل أكثر من ذلك فهذا هو أول تشابه بين مجتمع مايكوم والمجتمع الأمريكي والمجتمع العالمي، وقد ذكر الله تعالى هـــذا التعدد في القرآن الكريم فقال (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا)

❖ **أسباب الصراع واحدة**: فكل جنس وكل طائفة دينية تعتبر نفسها أفضل من غيرها وتعتبر غيرها أدنى منها في المرتبة وفي القيم وفي الكفاءة العقلية أيضا، فكل منهم ينظر للآخرين على اأهم همـــج ، فنجــد أتبـــاع الكنيســـة البروتستانتية المعمدانية (غاسلو الأقدام) يعتبرون الآنسة مودي وهي مسيحية طيبة، مثواها الجحيم لأنها تهتم بزهورها وذلك لأنهم يعتقدون أن كل شيء يجلب المتعة فهو خطيئة، وإذا نظرنا لمجتمعنا المعاصر لوجدنا هذه الظاهرة المتطرفة مازالت موجودة وإن كانت بشكل أبشع، فنجدها بين المسيحيين أنفسهم، وبين اليهود فنجد اليهـــودي المتشـــدد (الإسرائيلي) يكفر اليهودي المعتدل، كما نجدها بين المسلمين، فالسني يكفر الشيعي ويقول إن مثواه النار ، بل إن السني نفسه يكفر أخاه السني فنجد بعض المتشددين من أنصار الدعوة السلفية يعتبرون الإخوان المسلمين منـــافقين وكل همهم السلطة ويعتبرون الصوفيين مبتدعين ومثواهم النار وهكذا، وكما قالت الآنسة مودي "في بعض الأحيان يصبح من يحمل الكتاب المقدس بيمينه أسوأ ممن يحمل قارورة ويسكي" وأنا أتفق معها في ذلك فهنالك من رجال الدين وهم بالأحرى ليسوا رجال دين بل مدعين يدعون للفتنة والفرقة ويظنون أن الدين عصبية وعنصرية وتشدد مع الآخر في حين أنه جاء فى الإنجيل "أحبوا أعداءكم" وجاء في القرآن الكريم "ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بـــالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون".

وبالنسبة للعنصرية العرقية نجد المسيحي الأبيض يظن نفسه أفضل من المسيحي الأسود وقد أشارت كاتبة الرواية لذلك في عدة مواضع، فمثلاً عند اجتماع الجمعية التبشيرية عند **السيدة ألكسندرا** حينما قالت **السيدة مريـــوذر** لجان لويز "أنت فتاة محظوظة فأنت تعيشين في بيت مسيحي مع أشخاص مسيحيين في بلدة مسيحية أما هنـــاك في أرض (ج. جريمز إيفرت) فلا شيء هناك سوى الخطيئة والقذارة " إشارة منها إلى زوجة توم روبنســـون الرجـــل

الأسود الذي حكم عليه بالموت على الكرسي الكهربائي ظلما،كما نجد هذا الشعور العنصري متسيد الموقف حين نطق المحلفين البيض بحكمهم على توم روبنسون بأنه مذنب لاغتصابه الآنسة مايبلا يوويل، مع أن كل الأدلة تبرئه، وأنا أجد هذا الواقع يتسيد واقعنا الحالي بشكل غريب فنجد من المؤلفين الأمريكيين من اعتقد أن العلاقات الدولية الحديثة قائمة على فكرة صراع الحضارات، إشارة منهم للصراع بين المسلمين والمسيحيين، بل إن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية السابق قد اعتبر حربه على العراق حربا صليبية، وهكذا تتشابه الوقائع كـــل مـــا هنالـــك أن المسميات وأشخاص الصراع تختلف، **ونجد أن كاتبة الرواية عالجت هذا الصراع في أكثر من موضـــع**، فنجـــد الآنسة سكاوت حينما تساء لت عن كيفية التمييز بين من ينتمون للجنس الأبيض ومن ينتمون للجنس الأســـود وللملونين وتذكرت مقولة عمها جاك فينش حينما قال لها: إننا لا نعرف حقا هل نحن من أصل أبيض أم زنجـــي فلربما نكون أتينا من إثيوبيا مباشرة أيام العهد القديم" إشارة منه إلى أنه لايوجد جنس على وجه الأرض نقي، وهذه حقيقة أثبتها العلماء، وأثبتها التاريخ فكل أصحاب نظرية الجنس النقي قد انهارت نظرياتهم ومـــن ذلـــك مـــثلا، الفلاسفة الألمان الذين قالوا بنقاء الجنس الآرى وتفوقه على غيره من الأجناس، كما نجد أن المؤلفة أشارت إلى حل هذا الصراع فى موضع آخر حينما قالت **السيدة لولا** في غضب **للسيدة كالبورنيا** "لماذا تحضرين أولادا بيضـــا إلى كنيسة الزنوج، فردت عليها وقالت: إنه نفس الإله أليس كذلك**!!** "وكما قال رسول الله سيدنا محمد صـــلى الله عليه وسلم (يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عـــربي ولا لأحمـــر علـــى أســـود ولا لأســـود علـــى أحمـــر إلا بـــالتقوى) صـــدق رســـول الله.

ازدواجية المبادئ: وقد أشارت المؤلفة لهذه الازدواجية في الموضع الذي اجتمع فيه أعضاء الجمعية التبشيرية بالسيدة

ألكسندرا التي ترأس هذه الجمعية في خوض غمار الحرب المقدس ، وأخذت السيدة جريس مريوذر تقدم تقريرا في غرفة الجلوس حول الحياة البائسة التي تعيشها قبيلة المرونا، (وهذه القبيلة تعيش في فقر مدقع، وهنا تلجأ المؤلفة هاربر لي إلى السخرية في هذا المقام من السيدات اللاتي يبدين اهتماما بحياة الأفارقة البائسين بينما لا يحرك مشاعرهن ما يقاسيه الأفارقة الأمريكيون من ظلم تحت النظام العنصري، كما أشارت لهذه الازدواجية في موضع آخر، حينما أوضحت **الآنسة جيتس** رأيها في أدولف هتلر بأنه ديكتاتور وبأنه أساء معاملة اليهود (**الهولوكوست**) وأبدت حزنها الشديد لذلك، في حين أنها لدى خروجها من دار المحكمة في **ليلة الحكم على توم روبنسون قالت عن الزنوج" أنه لابد أن يلقنهم أحد درسا، فقد صاروا يحاولون تخطي حدودهم وأن الخطوة التالية التي سيفكرون فيها ستكون الزواج منا**" وهذا التناقض في موقف المعلمة جعل تلميذتها الآنسة سكاوت وهي أحد الطيور البريئة في هذه الرواية – تقلق ويحيرها الأمر وقد عبرت عن هذه الحيرة والقلق في هذا التساؤل "كيف يمكنك أن تكره هتلر إلى ذلك الحد ثم تتحول لتمارس أفعالاً بشعة تجاه أشخاص موجودين في موطنك على الأخص! كما أن حكم المحلفين على توم روبنسون مع علمهم أنه برىء هو أحد أشكال هذه الازدواجية ، فعندما جاء حكمهم بأنه مذنب مذنب مذنب، تذكرت القرارات التي تصدر من منظمة الأمم المتحدة بإدانة أفعال دولة إسرائيل، فكما حكم المحلفين البيض على توم روبنسون المظلوم بأنه مذنب نجد الدول الكبرى تحكم دائما على الدول العربية المظلومة بأنها هي المذنبة وتسقط أى قرارات ضد مصالح إسرائيل بحق الفيتو، فنحن مثل توم روبنسون نعاني من هذه الازدواجية في المبادئ، فالازدواجية في المبادئ والشعارات أصبحت عنوان العلاقات الدولية الآن، فحينما ينكر أحد مذابح الهولوكوست حتى ولو كان من كبار رجال الدين المسيحي أو حينما يحتج أى مسئول

على تصرفات الدولة الإسرائيلية التي تمارسها تجاه جيرانها تقوم الدنيا ولا تقعد ويتهم بالرجعية وبالتشدد وبمعاداة السامية وما أدراك بمعاداة السامية! ونحن لا ننازع اليهود فى أنهم ظُلموا وقُتلوا في مذابح الهولوكوست ولكننا أيضا لا نرضى بأن تمارس إسرائيل هذه العقدة تجاه إخواننا الفلسطينيين وتقوم بعمل آلاف من مذابح الهولوكوست بدون أن يدينها أحد، وأقوى مثال أيضا على هذه الازدواجية هو استخدام ألفاظ براقة نحترمها جميعاً ونرفع لها القبعة على الطريقة الأمريكية، مثل كلمة الديمقراطية، فهي البوابة السحرية التي عن طريقها تحتل البلاد ويهان العباد وتغتصب النساء وتهتك أعراض الرجال، وحين تتساءل هل هذه هي الديمقراطية، تغتال باسم الديمقراطية، الازدواجية مقيتة جعلت أول من يغتال الديمقراطية هم أهل الديمقراطية والأحداث خير شاهد على ذلك بداية من سجن أبو غريب إلى جوانتانامو ونهاية بأساليب تعذيب وتجسس واقتحام للحياة الخاصة، إنها حقا ازدواجية مقيتة عانى منها الأفارقة الأمريكان كما عانينا نحن منها، والعيب ليس في الديمقراطية بل فى الازودواجية فالديمقراطية كما عرفتها الطفلة سكاوت هي "فرص متكافئة للجميع، لا مزايا لأحد دون الآخر".

رجال شرفاء : قد أجريت مقارنات في المواضع السابقة اتسمت جميعها بالسلبية ولكني في ختام مقالي وإحقاقاً للحق ينبغي أن أجري مقارنة بين أحد رجال الرواية الشرفاء وأحد الشرفاء الموجودين على الساحة الدولية حاليا وذلك لما أجده من تشابه كبير بينهما، فهذه المقارنة أجريها بين السيد (**أتيكوس فينش)** المحامي الشريف وبين السيد (باراك حسين أوباما) وهو محامي شريف أيضا كما أنه أول رئيس من أصل إفريقي يصل إلى سدة الحكم في الولايات المتحدة الأمريكية ، وكلاهما إثباتٌ على أن المحامين كانوا اطفالاً يوما ما (اقتباس من تشارلز لام) وبداية سأذكر تنويه عما يجمع بين الشخصيتين، فأتيكوس رجل مبادىء، ومما يدل على ذلك أنه حينما أهدى طفليه

بندقيتين بمناسبة عيد الميلاد، حذرهما وقال لهما "إنها خطيئة أن تقتل طائرًا بريئًا" وهذا التشبيه يمكن أن نفهمه بمعنى أنها خطيئة أن تقتل طفلاً بريئا أو مدنيا أعزل، إن ١١ أيلول ٢٠٠١ كانت خطيئة كما أن حرب العراق كانت خطيئة كما أن حرب غزة كانت خطيئة، وأعتقد أن الرئيس أوباما أول رئيس أمريكي يتخلى عن الازدواجية في التعامل ويصرح أن حرب العراق وحرب غزة كانت خطيئة، كما أن أتيكوس **عندما سألته ابنته سكاوت** وقالت "لماذا تدافع عن الرجل الأسود ما دام الناس يرون أنه لا يجدر بك ذلك" فكان رده "لأني لا أستطيع أن اطلب منكما ثانية أن تلتزما بما أقوله لكما يا سكاوت" فهذا الرجل عرف أن الحياة بلا مبادئ لا تساوي شيئا، ويمكنني أن أقول إنه فعلا مسيحي حقيقي، وأعتقد أن السيد أوباما يتشابه أيضا في هذا الموقف مع أتيكوس ، وذلك لأنه قام بتغيير سياسته مع العرب لاقتناعه بأن الجميع سواسية و لم يهتم بأن يتهمه الناس بأنه لا يهتم بمصالح أمريكا أو بأنه معادٍ للسامية ، وأعتقد أنه أجرى نفس الحديث مع ابنة من بناته، كما أن أتيكوس يفهم ثقافة الاختلاف ويستطيع أن يقدر من يختلفون معه في وجهات النظر، وذلك نراه حينما علم بوفاة **السيدة ديبوز** قال إنها سيدة عظيمة رغم أنها كانت دائما ما تسيء له ولأسلوبه في التعامل مع أولاده أو في التعامل مع السود، إلا أنه مع اختلافهما هذا قال إنها كانت امرأة عظيمة كما أنه عاملها أثناء حياتها كامرأة عظيمة أيضا، وفي العديد من المواضع يمكننا أن ندلل أيضا على أن أتيكوس رجل مبادىء، فحينما أشارت الآنسة سكاوت لأخيها جيم "بأن أبيها أتيكوس كان أعظم رامٍ في المقاطعة في يوم من الأيام، فلماذا لا يحمل سلاحا ليحمي به نفسه من عائلة يوويل" (وهي العائلة اتلي ادعت أن توم روبسنون اغتصب بنتها وغضبت أشد الغضب من أتيكوس لأنه فند ادعاءاتهم أمام المحكمة) فما كان من جيم إلا أن أخبرها إن أبيه أتيكوس أخبره مرة "إن حمل البندقية هو دعوة لغيرك كي يطلقوا النار عليك" وهنا نجد

تشابُهًا آخر بين السيد أتيكوس والسيد أوباما، فالسيد أوباما هو يمثل أكبر قوة عسكرية في العالم إلا أنه بفطنته قد علم كما علم أتيكوس أن استخدام السلاح هو دعوة لغيره لكي يطلقوا النار عليه فقد استفاد من أخطاء حـــزب الصقور (الحزب الجمهوري – الذي ينتمي إليه بوش الابن) وأعلم أن أحداث ١١ سبتمبر وغيرها من الأحـــداث الدامية إن كنا نتفق أنها أحداث إرهابية وليس لها صلة بالمنهج الإسلامي الصحيح ودليلنا في ذلك ما رواه ســيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال:كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا بعث جيشا من المسلمين إلى المشركين قال(انطلقوا بسم الله ... لا تقتلوا وليدا طفلا ولا امرأة ولا شيخا كبيرا ولا تغورن عينا ولا تعقــرن شـــجرا ولا تمثلوا بآدمي ولا بهيمة ولا تغدروا ولا تغلوا) إلا أنني أظن أن السيد أوباما يتفق معنا أن السياسات المستفزة الصادرة من الإدارة الأمريكية كانت هي السبب الأكبر في هذه الأحداث، وآخر تشابه يمكن أن أذكره بين السيد أتيكوس والسيد أوباما. هو أن أتيكوس قرر أن يترافع لصالح توم روبنسون الرجل الأسود المظلوم مهما كانت العواقب لأن تبرئة توم روبنسون هي لمصلحة الجميع وهي المانع دون انفجار يمكن أن يحدث في أى وقت بين السود والبــيض، وهذه حكمة من السيد أتيكوس، والشبه هنا بين موقف السيد أتيكوس وموقف السيد أوباما ، إن السيد أوباما عزم على أن يترافع أمام العالم ليرد للمسلمين اعتبارهم وحقهم التاريخي في النهضة العالمية التي نعيشها، وعندما فعل ذلك كانت هناك العديد من الألسنة التي توجه له الاتهام كما قلت من قبل، إلا أن مثله مثل السيد أتيكوس قد علـــم أن هذه المرافعه تمثل خطوة للأمام خطوة نحو مستقبل أفضل للجميع خطوة إن نجحت فستمنع حدوث انفجار يطيح بالجميع، فلا بديل لنا عن أن نحب بعضنا البعض كما قال أتيكوس ونحاول التعايش معاً في سلام . وذلك لا يكون إلا بإعطاء كل ذي حقٍ حقه . ولا يضيع حق وراءه مطالب.